الأقصوصة فى أدب الرسول

(١)

فى الإنسان – أى إنسان – ميل شديد إلى القصة ، فهو إذا شاهد حادثة فى الطريق رفه عن نفسه بروايتها ووصفها والتعليق عليها ، وإذا وجد من يقص ويروى تابعه متطلعًا على شوق ، واستوعب قصته ليرويها للناس . وكان للعرب أسمارهم وسهراتهم تروى فيها القصص ، وتتعدد فيها الروايات ، وإذا كانت البيئة الجاهلية مسرحًا للغارات والحروب ، وهبات الرمل وعويل الريح وتخايل الأشباح فى ظلماء الليل ، فإن قصصهم السامرة تدور حول ما يحسون ويتخيلون ، وقد سجلت لنا الكتب الأدبية كثيرًا من أساطير الأولين، ولكن الأستاذ (أرنست رينان) منذ قال: « إن العقل السامى عقل جزئى لا يميل إلى الشمول والسعة ، والعقل الآرى عقل كلى ، ينظر إلى الأشياء نظرة عامة واسعة » منذ قال ذلك ، والهجوم على العقلية العربية ظلمًا دون تحقيق يفيض ويتسع ، ومما قيل فى ذلك : أن العقل العربى لا يجيد القصص ، إذ إن القصص ذات أبعاد وأطوال ولا ينهض بملئها عقل جزئى محدود! وقد أثر كلام (رينان) فى أخلص الخلصاء للعرب ، فأصبحنا نجد مؤرخى الأدب من رجالنا أنفسهم يشتطون فى أحكامهم ، فهم يرددون دائمًا مثل قول الأستاذ (أحمد أمين) فى « فجر الإسلام » عن العربى [١] .

« إن خياله محدود وغير متنوع ، وقلما يرسم خياله عيشة خيرًا من عيشته ، وحياة خيرًا من حياته التى يسعى وراءها » وبالحكم على العربى بضيق الخيال حكم

(١) « فجر الإسلام » ، ص ٤٦ ، ط ثالثة .

عليه ظلمًا بمعاداة القصة ، وهى شىء لا يكاد يكون غريزيًّا فى كل إنسان ؛ لأنها قائمة على حب الاستطلاع وترقب النهايات ، واستعظام المفاجآت ، ولقد كان للعرب قصاص يرددون الحديث عن الآباء والأجداد والرحلات والقوافل والغارات ، مما امتلأت به كتب الأدب ، وإذا لم نجد فى الأدب القديم قصة كاملة النهج مستوفاة شرائط الفن الحديث ، فذلك شىء طبيعى يتفق والبيئة الساذجة التى تتطلع إلى آفاق ، لم تلبث أن امتدت على يد الإسلام ، ولكنها لا تخرج عن كونها قصة ، وإذا كان من مميزات الأدب اليونانى عند خصوم العرب قيامه على الأساطير والخرافات ، فإن الخرافات لم تكن بعيدة عن الذهن الجاهلى فى بعض تفكيره ! وكلمة خرافة فى أصلها العربى تدل على : رجل تاه فى الأرض واختلط عقله ردحًا ما ، حتى قيل : إن الجن قد استهوته ، ثم رجع إلى قبيلته يحدثها عما شاهد من الغرائب ، فضرب به المثل القائل : « حديث خرافة » وحين لمس القرآن حاجة النفس إلى القصص ، جاء بأخبار الأولين من فرعون وعاد وثمود ، وشرح قصص مريم وامرأة العزيز وبلقيس وأهل الكهف ! وقَصص القرآن وقَصص واقعى تاريخى لا خيال فيه ، ولكنه ضرب من ضروب القصص يرضى حاجة النفس ، ويمد الرسالة النبوية بأمثلة من القوة والصبر والعزاء ! : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾[1] .

فالقصة : إحدى أسلحة القرآن فى الهداية والإرشاد ، وهى أيضًا إحدى أسلحة محمد ﷺ فى الهداية ، وقد كان مبلغ تأثير القصة عظيمًا غاية العظم فى نفوس العرب ؛ إذ سحروا بما سمعوا من غرائب الأولين ، واضطر المناوئون للدعوة الإسلامية أن يختاروا قصصًا منهم يصد عن سبيل الله بما يعلم من عجائب الفرس

(١) سورة يوسف : ١١١ .

ليمنع شيء شيئًا ، قال تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[1] ، وجاء فى الكشاف عن هذه الآية ، نزلت فى (النضر بن الحارث) ، وكان يتجر إلى فارس فيشترى كتب الأعاجم فيحدث بها قريشًا ، ويقول : إن كان محمد يحدثكم بحديث عاد وثمود ، فأنا أحدثكم بأحاديث (رستم وبهرام والأكاسرة وملوك الحيرة) فيستملحون حديثه ويتركون استماع القرآن » [2] .

وفى كتاب « أسباب النزول » (للنيسابورى) نرى تعليقًا مستفيضًا على قصة أهل الكهف ، يفصل كلام (الزمخشرى) ويزيد عليه أن بعثة من قريش تألفت من (النضر بن الحارث وعقبة بن أبى معيط) وغيرهما قد ذهبت إلى أحبار اليهود بالمدينة تعلم عنهم أنباء الأولين لتسأل عنها محمدًا ! فمكانة القصص إذًا من الدعوة الإسلامية مشتهرة ذائعة ، إذ كانت إحدى الأسلحة الناصرة لا محالة ! إذ إن القصة الهادفة تقنع العقل وتمتع الوجدان ، وهى إذا اتضح مغزاها النبيل أعمق المسارب الإنسانية إلى الهداية والتوجيه !

أجل .. كانت القصة الهادفة إحدى وسائل محمد فى الإقناع والتأثير ! وقد نقلت كتب الحديث قصصًا كثيرة مما حكى الرسول ، وإذا أردنا الدقة الفنية فلنقل أقصوصة لا قصة ؛ لأن علماء هذا الفن يطلقون الأقصوصة على القصة القصيرة ، التى يعالج فيها الكاتب جانبًا من حياة لا كل الجوانب ، فهو يقتصر على حادثة لا حوادث ، أما القصة فهى التى تتسع إلى جوانب أرحب وأفسح ، فلا بأس أن يطول الزمن وتمتد الحوادث ، ويتوالى تطورها فى شيء من التشابك والتمازج [3] .

---

(١) سورة لقمان : ٦ ، ٧ .

(٢) « الكشاف » ، ج ٢ ، ص ١٩٣ .

(٣) « دراسات فى القصة والمسرح » للأستاذ محمود تيمور .

وقد تتضاءل الأقصوصة حتى تصير خبرًا قصصيًّا محدودًا ، وما إلى هذا النوع نقصد ، وإن وجد كثيرًا فى كلام النبوة من مثل قوله ﷺ :

« بينما رجل يمشى بطريق اشتد عليه العطش ، فوجد بئرًا ، فنزل فشرب ، ثم خرج فإذا بكلب يلهث يأكل الثرى من العطش ، فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى كان بلغ منى ، فنزل البئر فملأ خفه ماءً فسقى الكلب ، فشكر الله له فغفر له » [1] رواه البخارى ومسلم .

ومثل قوله : « بينما امرأتان معهما ابناهما ، جاء الذئب فذهب بابن إحداهما ، فقالت لصاحبتها ! إنما ذهب بابنك أنت ، وقالت الأخرى : إنما ذهب بابنك ، فاحتكمتا إلى داود « عليه السلام » فقضى به للكبرى ، فخرجتا على سليمان بن داود « عليهما السلام » فاختبرتاه ، فقال : ائتونى بالسكين أشقه بينكما ، فقالت الصغرى: لا . يرحمك الله هو ابنها فقضى به للصغرى » رواه الشيخان والنسائى [2] .

فهاتان أقصوصتان تضاءلتا حتى كادتا تبلغان مبلغ الخبر ، ومع إيجازهما المفرط فقد تضمنت كلتاهما لباب ما تتضمنه الأقصوصة المتسعة ! ففيهما السويق ، والإثارة ، وفيهما التصوير النفسى للعواطف ، وفيهما بعد ذلك العظة الهادفة من الرحمة الواجبة للحيوان فى الأولى ، والحنان المستقر بنفس الأم فى الثانية ! مع ما تشير إليه من بعد نظر سليمان بن داود وقدرته على اجتلاء الصواب بحيلة تصل إلى مقطع الرأى فى قضية دامسة غاب شاهدها المنير ! ومع ما بهاتين الأقصوصتين القصيرتين من لوامع وضيئة ، ومثلهما كثير فى أدب النبوة ، فإننا نتجاوزهما إلى الأقصوصة المبسطة نوعًا ما لنرى كيف عالجها الرسول بسداد وتوفيق ! ونحن لم نتعد الأقاصيص المتفق عليها فى الكتب الصحاح ، تاركين ما عزى إلى الرسول فى كتب الترغيب والترهيب ، مما لم يشف سياقه عن طابع محمد الأصيل !

---

(١) « التاج » ، ج ٢ ، ص ٢٦٩.

(٢) « التاج » ، ج ٣ ، ص ٦٩.

نعلم أنه لابد لكل أقصوصة من وحدة فنية تكون هدفًا للكاتب ، يحققها بما يعرض من صور ويرسم من شخصيات ، ويعالج من أحداث ، بحيث يكون ذلك كله خيوطًا متلاحمة تؤدى إلى نسيج قوى متماسك يبرز هذه الوحدة الفنية ! فالوحدة الفنية فى القصة والأقصوصة معًا هى الفكرة الأصلية التى يحاول القصاص إبرازها وراء ما يقدم من نتاج ، ولابد أن تكون من الوضوح فى نفسه ؛ بحيث يستطيع التعبير عنها بصوره وأحداثه تعبيرًا يبرزها للقارئ بروزًا لا يتستر بإبهام وغموض ، وقد تضم الأقصوصة عدة أفكار مهمة ، ولكنها تتلاحق وتتساند لإبراز الفكرة الأصلية ، فلا يكون هناك من التعارض والتناقض ما يجعل الأقصوصة عرضة للانهيار ! وتطبيقًا لذلك نعرض – من أقاصيص الرسول – قصة الصخرة المطبقة على غار يأوى ثلاثة أفراد ، فإن فكرتها الأولى هى : تقرير أهمية العمل الصالح فى الحياة إذ ينقذ من الضيق ، ويفرج من الكرب ! هذه الفكرة الأساسية لا تمنع أفكارًا خلقية ودينية أخرى تساندها فى القصة ، فحب الوالدين والقيام بخدمتهما عند المتحدث الأول من رجال الأقصوصة ، والرجوع عن المعصية بعد الإقدام عليها عند المتحدث الثانى ، وأداء حق الأجير عند المتحدث الثالث ، كل هذه الثلاثة أفكار قوية تؤدى إلى الفكرة الأساسية ، وهى تقرير أهمية العمل الصالح ، بل إنها تدل عليها بأحداثها الواضحة ، وهنا نجد التلاؤم فى الأفكار والخواطر يسير بالعمل الفنى سيرًا مطردًا إلى الكمال ، وإذا كانت بعض القصص تعتمد فى بنائها الأدبى على الأحداث كعنصر بارز ، وبعضها الآخر يعتمد على الحوار ، وبعضها يعتمد على الأشخاص ، وبعضها يعتمد على المناجاة ، فإن عنصر المناجاة فى قصة الغار والصخرة قد كان أقوى العناصر البارزة فيها ، حيث رفع كل سجين يده ليناجى ربه بما أسلف من الخير فى حياته ، فهو يستعرض ماضيه من مناجاته استعراضًا يأتى بالأحداث السالفة زلفى للنجاة ! أما تعبير القصة فقد

كان مع إيجازه موحيًا ترسم ألفاظه أضواء مختلفة ، حتى لكأن كل لفظ فى حده صورة لمشهد ! ولنا أن نتابع القصة ببعض التحليل كما جاءت فى كتب الحديث :

« عن ابن عمر عن النبى ﷺ قال : بينما ثلاثة نفر يمشون ، أخذهم المطر ، فأووا إلى غار فى جبل ، فانحطت على فم غارهم صخرة من الجبل ، فانطبقت عليهم »[1] .

هنا ..توالت الأحداث مسرعة : أشخاص ، وأمطار وفرار إلى الجبل ، وانطباق صخرة ! إن المفاجأة لتشد سمع المستمع مشوقًا إلى تتمة ما كان ! وقد أغنت هذه الكلمات القليلة عن وصف مسهب يتقدم به ثرثار ليرسم الأحداث الأولى فى نحو ثلاث صفحات ! ثم ما عسى أن يقوله غير ما أوحت به كلمات القصة ، إن كل لفظ منها يحمل مدلولاً يفتح أبواب الخيال لدى السامع فتريه من وراء الغيب ، ما أدرك الثلاثة من العجلة حين رأوا المطر ، ومن الحيلة حين اهتدوا إلى الجبل ، ومن الضيق المتأزم حين سقطت عليهم الصخرة مؤذنة بالهلاك !

قال الحديث بعد ذلك : « فقال بعضهم لبعض : انظروا أعمالاً عملتموها صالحة لله ، فادعوا الله بها لعله يفرجها عنكم ، قال أحدهم : اللهم ، كان لى والدان شيخان كبيران ولى صبية صغار كنت أرعى عليهن ، فإذا رحت عليهم حلبت ، فبدأت بوالدى أسقيهما قبل بنى ، وإنى استأجرت ذات يوم فلم آت حتى أمسيت ، فوجدتهما نائمين فحلبت كما كنت أحلب ، فقمت عند رءوسهما أكره أن أوقظهما ، وأكره أن أسقى الصبية ، والصبية يتضاغون عند رجلى حتى طلع الفجر ، فإن كنت تعلم أنى فعلته ابتغاء وجهك فأفرج لنا فرجة نرى منها السماء ، ففرج الله فرأوا السماء » .

(١) « التاج » ، ج ١ ، ص ٤٦.

هنا تكفّلت المناجاة بإيضاح ما كان ، وجاء التعبير دقيقًا بإيحائه النفسى ، فالوالدان يغطان فى النوم ، والابن قائم على رأسيهما ، والصبية يتضاغون ! أى مقابلة نفسية كبيرة بين بكاء الأطفال وتصبر الولد وتماسكه حتى يستيقظ الوالدان ! وهنا أيضًا فهم الهدف الخلقى من مراعاة حقوق الوالدين ؛ فهما تأثيريًّا لم ينبع من الوعظ ، ولكن من رسم المشهد فى أدق صورته ! وهنا ثالثًا جاءت النتيجة السارة المرتقبة إذ تزحزحت الصخرة ، فرأوا لون السماء ، وعرفوا كيف يتنفسون !

وقال الحديث متابعًا :

« قال الآخر : اللهم ، إنه كانت لى بنت عم أحببتها كأشد ما يحب الرجال النساء ، فطلبت منها ، فأبت حتى آتيها بمائة دينار ، فبقيت حتى جمعتها ، فلما وقعت بين رجليها قالت : يا عبد الله ، اتق الله ولا تفتح الخاتم إلا بحقه ، فقمت ، فإن كنت تعلم أنى فعلته ابتغاء وجهك ، فأفرج عنا فرجة ففرج » .

مناجاة ثانية تصور الأحداث بجوامع الكلم ، وتوجز لتترك إطنابًا نفسيًّا يفيض ويمتد ، أرأيت إلى الاقتصاد على قوله : « فطلبت منها » دون أن يبين المطلوب ! وعلى قوله « فقمت » متحرجًا أن يقول مستحييًا من نفسى ، مستجيبًا إلى هاتف الضمير ، ثم أرأيت إلى هذا الكناية البديعة : اتق الله ولا تفتح الخاتم إلا بحقه ! كل ذلك دعوة خالصة مقنعة إلى العفة وصيانة المحارم تجذب بتأثيرها الرائع نفس السامع ، فتقوم مقام عشرات من الخطب المنبرية فى التصون ، والعفاف ! ثم تتفرج الغمة إلى حد يبشر بالفرج ، فيشير الحديث إلى ذلك بقوله عقب المناجاة الحارة الصادقة : ففرج !

ويتابع النص النبوى قوله : وقال الثالث : اللهم إنى استأجرت أجيرًا بفرق أرز فلما قضى عمله قال ، أعطنى حقى ، فعرضت عليه فرغب عنه فلم أزل أزرعه حتى جمعت منه بقرًا ورعاتها ، فجاءنى فقال : اتق الله ، فقلت : اذهب إلى تلك البقرة ورعاتها فخذ ، فقال : اتق الله ولا تستهزئ بى ، فقلت إنى لا أستهزئ بك ،

فخذه فأخذه . فإن كنت تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك ، فأفرج ففرج الله ، وفى رواية فخرجوا يمشون ،.. رواه الشيخان .

مناجاة ثالثة ترسم مفاجأة غريبة ! أجير كان يطمع فى قدح من الأرز فقط ، يسارع إلى طلبه فيقول له صاحبه : اذهب إلى تلك البقرة ورعاتها فخذ ، فلا يصدق إطلاقًا ، ويصيح أتستهزئ بى ؟ ثم يجد الجد دون الهزل ، فيصبح صاحب البقرة والرعاة ، أى دعوة إلى المحافظة على حق الأجير أقوى ممّا رسَمَتْه القصة فى فصلها الأخير ! وأخيرًا جاءت النتيجة النهائية سارة مطمئنة ؛ إذ كشف الله الصخرة ، فخرجوا يمشون !

لقد التقت خيوط القصة لتؤدى إلى نسيج قوى متماسك يقبض عليه القارئ بيده معجبًا ! فالطاعات تفرج الكربات ، والعمل الصالح ينفع صاحبه فى المأزق الحرج ! والقصة بصياغتها القوية نمط رائع من الأدب ؛ يؤكد أن الفن فى أرفع مجالاته يلتقى بالدين حين يشيد بمبادئ الرحمة والعفة والحق والإنصاف ! وإن محمدًا ﷺ حين جعل الأقصوصة من عدده التى يغزو بها المشاعر ، ويعبئ النفوس إنما اعتمد على سلاح قوى نفاذ ، وقد أجاد استعماله بما أبدع فى قصصه من تصوير وتلوين !!

وإذا كانت المناجاة فى أقصوصة الصخرة هى الأداة التى تنطق بالحوادث ! فإن الحوار فى أقصوصة أخرى يكون اللون المختار لتأدية ما يهدف إليه الرسول من معان ، وإذا كان الحوار مصدر متعة وطرافة فى بعض الآثار الفنية ، فإنه يكون فى بعضها الآخر مثار فضول وعبث ؛ إذ يندفع الكاتب إلى ما يشبه اللجاج ، وقد ترك اثنين يتصارعان فى تحد متعسف وكل يحاول أن يتشبث برأيه ، والحوار فى قصة نبوية لن يأخذ غير سمته الرفيع ؛ إذ يدعو إلى الحكمة والموعظة الحسنة فى إيجاز لماح ، هذا إذا كان الحوار بين إنسانين عاديين ، فكيف به إذا كان بين الله وملائكته المقربين !

لقد جاءت أحاديث مختلفة تشير إلى ألوان مختلفة من الحوار بين الله وملائكته ، كما جاء فى القرآن ما يشير إلى هذا اللون أيضًا من مثل قول الله : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾[1] .

وما جاء فى الحديث النبوى من الحوار بين الله وملائكته مع قوة هدفه وعمق مغزاه واضح شفاف ؛ ليستميل إليه القارئ بمجرد النظرة الأولى ، وهنا يظهر فضل الأقصوصة فى جذب الأنظار بما تتضمن من التشويق ، وبما تدفع إلى الاستزادة والاستكثار فى تلذذ واستمتاع لقرب موقعها ولطافة مأخذها ، وحسن تأتيها إلى مكامن النفس ! ويمكننا أن نقدم طرفة نبوية من هذا اللون الجميل :

« عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : إن لله ملائكة يطوفون فى الطرق ، يلتمسون أهل الذكر ، فإذا وجدوا قومًا يذكرون الله عز وجل تنادوا : هلموا إلى حاجتكم ، قال : فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا ، فيسألهم ربهم عز وجل وهو أعلم بهم :

- ما يقول عبادى ؟

- قالوا : يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك .

- فيقول عز وجل : هل رأونى ؟

- فيقولون : لا والله ، ما رأوك .

- فيقول تعالى : كيف لو رأونى ؟

---

(١) سورة البقرة : ٣٠ - ٣٣ .

- فيقولون : لو رأوك كانوا أشد لك عبادة ، وأشد لك تمجيدًا ، وأكثر تسبيحًا .
- فيقول : وما يسألوننى ؟
- فيقولون : يسألونك الجنة !
- فيقول : وهل رأوها .
- فيقولون : لا والله يا رب ، ما رأوها !
- فيقول : فكيف لو أنهم رأوها ؟
- فيقولون : لو رأوها كانوا أشد عليها حرصًا ، وأشد لها طلبًا ، وأعظم فيها رغبة !
- قال : فَمِمَّ يتعوذون ؟
- فيقولون : من النار .
- قال : وهل رأوها ؟
- فيقولون : لا والله ، ما رأوها .
- فيقول : وكيف لو رأوها ؟
- فيقولون : لو رأوها كانوا أشد منها فرارًا ، وأشد لها مخافة !
- فيقول : فأشهدكم أنى غفرت لهم !

فيقول ملك من الملائكة : فيهم فلان وليس منهم ، إنما جاء لحاجة !

قال الله : هم الجلساء ، لا يشقى بهم جليسهم »[1] .

فماذا يرى القارئ فى تسلسل الحوار واطراده ؟ وكيف انتقل من شجن لشجن ليعلن فضل الذاكرين ، وخير المسبحين ! وليشمل هؤلاء بنعيم الله ورضوانه ، ثم لا يقتصر عليهم بل يلحق بهم من جالسهم داعيًا بذلك إلى مصاحبة الذاكرين العابدين ! لقد أدى الحوار دوره الأدبى ؛ إذ تمشى بالسؤال والجواب تمشية مستقيمة لا عوج فيها ولا أمت ، ثم أدى دوره الدينى حين بين الرسول فضل الالتجاء إلى السماء ، وتذكر الله فى مجالس العبادة ، ومطارح التسبيح ؟

* * *

(١) « التاج » ، ج ٥ ، ص ٩٠.

(٢)

وإذا اعتمدت قصة الصخرة على المناجاة ، واعتمدت قصة الذكر على الحوار ، فقد اعتمدت قصة الأعمى والأبرص والأقرع على تصوير الأشخاص ! إذ رسمت لكل شخصية من هؤلاء الثلاثة صورتين متقابلتين ، بينهما من الفروق ما بين السماء والأرض من أبعاد ، وبتأمل الصورتين المختلفتين يتجلى فضل النعمة وهول النقمة! وإذا كنا نجعل المناجاة سمة لأقصوصة والحوار سمة لثانية ، وتصوير الأشخاص سمة لثالثة ، فإنما نقصد السمة الغالبة ولا نعنى أنها انفردت بشىء واحد ، إذ إن كل قصة لا تخلو من أحداث وحوار وغيرهما ! .

وسنعرض الآن القصة الأخيرة كما جاء بها الحديث :

« عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : كان ثلاثة فى بنى إسرائيل أبرص وأقرع وأعمى ، فأراد الله أن يبتليهم ، فبعث إليهم ملكًا فأتى الأبرص فقال : أى شىء أحب إليك قال : لون حسن وجلد حسن ، ويذهب عنى الذى قذرنى الناس ، فمسحه فذهب عنه قذره ، وأعطى لونًا حسنًا وجلدًا حسنًا ؟ فقال : فأى المال أحب إليك قال : الإبل ، أو قال : البقر (شك إسحاق فى الأبرص والأقرع) قال أحدهما : الإبل ، وقال الآخر : البقر ، قال : فأعطى ناقة عشراء فقال: بارك الله لك فيها ! قال : فأتى الأقرع فقال أى شىء أحب إليك ؟ قال : شعر حسن ، ويذهب عنى هذا الذى قذرنى الناس ، قال : فمسحه فذهب عنه وأعطى شعرًا حسنًا ، قال : فأى المال أحب إليك ؟ قال : البقر ؟ فأعطى بقرة حاملاً فقال : بارك الله لك فيها ، قال : فأتى الأعمى . فقال : أى شىء أحب إليك ؟ قال : أن يرد الله إلى بصرى ، فأبصر به الناس قال : فمسحه فرد الله إليه بصره ، قال : فأى المال أحب إليك ؟ قال : الغنم ، فأعطى شاة والدًا فأنتج هذان وولد هذا ، فكان لهذا واد من الإبل ، ولهذا واد من البقر ولهذا واد من الغنم ، قال : ثم إنه أتى الأبرص فى صورته وهيئته فقال : رجل مسكين ، قد انقطعت بى الحبال فى سفرى فلا بلاغ لى

اليوم إلا بالله ثم بك ، أسألك بالذى أعطاك اللون الحسن ، والجلد الحسن والمال بعيرًا أتبلغ عليه فى سفرى ، فقال : الحقوق كثيرة ، فقال له : كأنى أعرفك ، ألم تكن أبرص يقذرك الناس فقيرًا فأعطاك الله ، فقال : إنما ورثت هذا المال كابرًا عن كابر ، فقال : إن كنت كاذبًا فصيرك الله إلى ما كنت ! قال : وأتى الأقرع فى صورته وهيئته فقال : رجل مسكين وابن سبيل انقطعت بى الحبال فى سفرى فلا بلاغ لى اليوم إلا بالله ثم بك ، أسألك بالذى رد عليك بصرك شاة أتبلغ بها فى سفرى ، فقال : قد كنت أعمى ، فرد الله إلى بصرى ، فخذ ما شئت ودع ما شئت فوالله لا أجهدك اليوم شيئًا أخذته لله ، فقال : أمسك مالك فإنما ابتليتم ، فقد رضى الله عنك وسخط على صاحبيك . رواه الشيخان [1] .

أقصوصة جيدة مبينة ، تدعو إلى المعروف بالمحسوس المشاهد ، وتأخذ مناظرها من أحوال الناس وملابساتهم ، فبنو آدم منهم الفقير والغنى والأعمى والبصير والأقرع وذو الشعر الجميل والأبرص والصحيح ! وكل مؤوف ينشد السلامة والعافية ، فإذا حققها الله لذوى الضر ثم منحهم المال والخير كان الأجدر بهم ، وقد ذاقوا مرارة الفقر ومضاضة الألم ، أن يعطفوا على من لا يزال رهين أوْصَا به وبأسائه ! وأنى ذلك ؟ وكثير من النفوس تعيث فى الأرض بالفساد إذا وجدت بسطة من الرزق وقليل من عباد الله الشكور ، إلى ذلك الكثير من الناس رمز الأقرع والأبرص فى القصة ، وإلى هذا القليل منهم رمز الأعمى الحيى العطوف! ولن تترك هذه القصة قارئها المتأمل دون أن يسبح سبحًا طويلاً فى عوالم البشر ، ودون أن يذهب بخياله إلى أناس يعرفهم فى مدى حياته رزقوا الصحة بعد المرض ، والغنى بعد الفقر ، والجاه بعد المذلة فكفروا بأنعم الله ، وانطبق عليهم قوله الكريم : ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾[2] ، وقوله عز وجل :

(١) « التاج » ، ج ٥ ، ص ٢٣٩.

(٢) سورة العلق : ٦ ، ٧ .

﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾[1] ومالنا نبعد وأمامنا قول القرآن فى بعض البخلاء : ﴿ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾[2] إن أقصوصة قصيرة تثير هذه الأحاسيس وأشباهها لذات نفع جزيل ، ولا أدرى لماذا تلح على إيحاءات الألفاظ فى القصة أن أخصها ببعض الإيضاح ! لقد أحسن الرسول التعبير عن الصرخات النفسية الكظيمة لدى الثلاثة، حين قال بلسان الأول راجيًا متمنيًا : لون حسن وجلد حسن ويذهب عنى الذى قذرنى الناس ! كلمات هادئة بسيطة ولكنها تحمل زفرات تكاد تتأجج بها الحروف ! وتكشف عن دنيا من السخط يمور بها صدر هذا المريض !

وإذا كان الإحساس البشرى واحدًا لدى كوارث النفس والجسم ، فإن المريض الثانى يجىء متفقًا مع أخيه ؛ إذ يقول فى توجع : شعر حسن ويذهب عنى هذا الذى قد قذرنى الناس! ويأتى الثالث فلا يتحدث عن القذارة ، بل يقول فى بساطة : يرد الله إلى بصرى ! وقد دل سلوكه بعد نعيمه على أنه من معدن غير معدن صاحبيه ! ويحسن الرسول تصوير الموقف حين يقف المتنازعان ليقول أحدهما فى تحد هازئ كأنى أعرفك ! ألم تكن أبرص يقذرك الناس ، فيرد عليه صاحبه متشامخًا: إنما ورثت هذا المال كابرًا عن كابر ! فيصفعه الرد المفحم مجابهًا : إنما كنت كذابًا فصيرك الله إلى ما كنت ! أما الأعمى فيحس بمأساته القديمة ، وتكاد تتجسم بهولها الفادح لعينيه ، فيقول فى عطف مشفق ، أجل كنت أعمى فرد الله بصرى ، فخذ ما شئت ودع ما شئت فوالله لا أجهدك اليوم شيئًا أخذته لله ، كلمات هادئة معبرة يقرأها القارئ لا ليلم بمعناها الإجمالى كما يطالع كثيرًا من الآثار ، ولكنه يقرؤها لترتسم أمام عينيه ، فكأنه يستعرض شريطًا سينمائيًا يمثل له الأبرص والأقرع والأعمى فى الخفض ، والشدة والهناء والشفاء حتى إذا انتهت مشاهد الشريط لم ينقطع تيارها

(١) سورة الشورى : ٢٧ .

(٢) سورة التوبة : ٧٦ .

الدافق عن النفس ، بل تفسح مجال التأمل للمعتبر ! وهى بذلك تدفع الأيدى الشحيحة إلى البسط بعد أن زعزعت بها معاقل الشح والإمساك ! وإذا فعل البيان ذلك فما أسماه ، لقد حكى الرسول هذه الأقصوصة عن بنى إسرائيل ، كما يظهر من النص النبوى الكريم ، أفتكون هذه الأحداث قد وقعت فعلاً وألهمها الله نبيه . إن اختيار القوم من بنى إسرائيل لا من أى قوم آخرين قد يدل على ذلك ، ولكن قصصًا أخرى تنسب لرجال من بنى إسرائيل فى كتب الحديث ، ويدل سياقها على أنها سيقت مساق التمثيل ، ومن ذلك ما رواه البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ « أنه ذكر رجلاً من بنى إسرائيل ، سأل بعض بنى إسرائيل أن يسلفه ألف دينار ، فقال : ائتنى بالشهداء أشهدهم ، فقال : كفى بالله شهيدًا قال : صدقت، فدفعها إليه إلى أجل مسمى ، فخرج فى البحر فقضى حاجته ، ثم التمس مركبًا يركبها يقدم عليه للأجل الذى أجله ، فلم يجد مركبًا ، فأخذ خشبة فنقرها . فأدخل فيها ألف دينار وصحيفة منه إلى صاحبه ثم زجج موضعها ، ثم أتى بها إلى البحر ، فقال : اللهم إنك تعلم أنى كنت تسلفت فلانًا ألف دينار ، فسألنى كفيلاً فقلت : كفى بالله كفيلاً فرضى بك وسألنى شهيدًا ، فقلت : كفى بالله شهيدًا فرضى بك ، وإنى جهدت أن أجد مركبًا أبعث إليه الذى له فلم أقدر وإنى أستودعها ، فرمى بها فى البحر حتى ولجت فيه ثم انصرف ، وهو فى ذلك يلتمس مركبًا يخرجه إلى بلده ، فخرج الرجل الذى كان أسلفه ينظر لعل مركبًا قد جاء لماله، فإذا بالخشبة التى فيها المال فأخذها لأهله حطبًا ، فلما نشرها وجد المال والصحيفة ، ثم قدم الذى كان أسلفه فأتى بالألف دينار ، فقال : والله ما زلت جاهدًا فى طلب مركب لآتيك بمالك ، فما وجدت مركبًا قبل الذى أتيت فيه قال : هل كنت بعثت إلى بشىء؟ قال : أخبرك أنى لم أجد مركبًا قبل الذى جئت فيه ! قال : فإن الله قد أدى عنك الذى بعثت فى الخشبة ، فانصرف بالألف دينار راشدًا »[1] . فماذا نرى فى هذه

(١) « جواهر البخارى » ، ص ٢٥٣.

الأقصوصة النبوية بعد التدقيق والإمعان أتكون الخشبة الملقاة فى البحر حاملة الألف دينار حقيقة واقعة ! أيوجد من العقلاء من يضحى بهذا المبلغ الضخم ، وهو يعلم أن احتمال وصوله فى حكم المستحيل ! أيوجد من تسوقه الظروف ليقف على سقيف البحر منتظرًا صندوقًا ماليًّا يصل إليه فى عهد لم يعرف البريد كل ذلك ، مما يبعد بالقصة عن واقعيتها إلى مساقها مساق التمثيل ، فتكون بهذا الوضع ذات دلالة خلقية ترجع إلى الوفاء الحتم بعهود القروض والمعاملات ، فإذا أراد رسول الله أن يعظم واجب أداء الدين ضربها مثلاً على ذلك ، والقرآن نفسه يسوق القصص مساق التمثيل خلوصًا منها إلى العبرة المستفادة من مغزاها ، وقد جاء فى تفسير المنار تعليقًا على حوار الملائكة فى خلق آدم ما نصه [1] :

« وقد علم مما تقدم : أن هذه الأقوال والمراجعات والمناظرات ، يفوض السلف الأمر إلى الله تعالى فى معرفة حقيقتها ، ويكتفون بمعرفة فائدتها وحكمتها ، أما الخلف فيلجأون إلى التأويل ، وأمثل طريقة فى معرفة حقيقتها ، التمثيل ، وقد مضت سنة الله فى كتابه بأن يبرز لنا الأشياء المعنوية فى قوالب العبارة اللفظية ، ويجلى لنا المعارف المعقولة بالصورة المحسوسة تقريبًا للأفهام ، وتسهيلات للإعلام، ومن ذلك أنه عرفنا بهذه القصة قيمة أنفسنا وما أودعته فطرتنا مما نمتاز به عن غيرنا من المخلوقات ، فعلينا أن نجتهد فى تكميل أنفسنا بالعلوم التى خلقنا مستعدين لها من دون الملائكة وسائر الخلق لتظهر حكمة الله فينا ، ولعلنا نشرف على معنى إعلام الله الملائكة بفضلنا ومعنى سجودهم لأصلنا « ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتفكرون » .

وقريب من أقصوصة سداد الدين فى خشبة البحر ما روته هذه الأقصوصة عن رسول الله :

(١) « تفسير المنار » ، ج ١ ، ص ٢٦٤ ، الطبعة الرابعة .

« عن أبى سعيد الخدرى ﷺ أن نبى الله ﷺ قال : كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسًا ، فسأل عن أعلم أهل الأرض ، فدل على راهب فأتاه ، فقال : إنه قتل تسعة وتسعين نفسًا ، فهل له من توبة ! فقال : لا ، فقتله فكمل به مائة ، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض ، فدل على رجل عالم فأتاه ، فقال إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة فقال : نعم ، ومن يحول بينك وبين التوبة ، انطلق إلى أرض كذا ، وكذا ، فإن بها أناسًا يعبدون الله فاعبد الله معهم ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء . فانطلق حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، فقالت ملائكة الرحمة : جاء تائبًا مقبلاً بقلبه إلى الله تعالى ، وقالت ملائكة العذاب : إنه لم يعمل خيرًا قط ، فأتاهم ملك فى صورة آدمى فجعلوه بينهم ، فقال : قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيهما كان أدنى فهو له ، فقاسوه فوجدوه أدنى إلى الأرض التى أراد ، فقبضته ملائكة الرحمة .

فهذه الأقصوصة تمثل فضل الله وسعة عفوه وعظيم صفحه عن المذنبين ، فهى تأكيد بالغ لقول الله عز وجل : ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[1] . وليس الأمر اختصام ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، ولا قياس مساحة الأرض ليعلموا إلى أى الناحيتين كان الميت أقرب !! إنما كان ذلك كله تجسيمًا لفداحة الجرم وهول الذنب ! وأى ذنب أكبر من أن يقتل مذنب مائة إنسان !! ثم يأتى بعد ذلك التوبة الخالصة يتبعها عفو الله . ونحن فى مجال الحكم الأدبى عليها نجدها قد صيغت بألفاظ واضحة معبرة ، فأحسنت الأداء عما يريده الرسول من معنى ، ثم صورت التوبة المقبولة بعد الجرم الفادح أتم تصوير !!

على أن كثيرًا من هذه القصص النبوية الحكيمة ، الهادية كان نواة لقصص دينى يعتمد على التمثيل الحكيم ، فقارئ كتب التصوف والأخلاق والتربية لكبار علماء

(١) سورة الزمر : ٥٣ .

الإسلام يجد من هذا الضرب أفانين ممتازة وضعها كبار الوعاظ وعلماء التربية والأدب والأخلاق فى الإسلام ! وهى جديرة بعناية الباحثين لتأخذ نصيبها من التاريخ الأدبى العادل ، وإلا فكيف تزدحم كتب السلف الصالح بأقاصيص (الثورى وطاووس ، وعطاء ، وابن السماك ، والأوزاعى ، والحسن البصرى ، والرقاشى ، والمحاسبى) ، ثم لا يهتم ناقد بتحليلها والحكم الناقد لها أو عليها ! فى حين نقرأ أجزاء الأغانى الكثيرة لنهتم بعبث (أبى دلالة ، ووالبة ، ومطيع بن إياس، والأقيشر الأسدى ، وبشار ، وحماد ، وأبى نواس) وأضرابهم ممن لا تذكر لهم غير المساخر والأضاحيك ، لسنا ننكر على مؤرخى الأدب تسجيل ما يعرفونه عن الشعراء والأدباء ، ولكننا ننكر أن يكون التاريخ غير عابئ بأقاصيص ذوى المثل والأهداف ! وكأنهم وحدهم يستحقون الإهمال !

وبعد ، فماذا يشترط ناقدو العصر الحديث فى الأقصوصة الناجحة ؟! ألا يشترطون أن تكون ذات مقدرة على الإيحاء الملهم ؛ إذ تتيح للقارئ أن يستنتج ويحلل بحيث لا تشرح له كل شىء ، بل تتركه يشق بمخيلته آفاقًا من التصوير والتفكير ، وإذ ذاك يقاسم المؤلف بعض إبداعه ، دون أن يدفعه الإيجاز إلى بعض الغموض والإبهام .

كما يشترطون ألا تكون الأشخاص بوقًا يردد آراء الكاتب ، بل يحتفظ لها بكيانها المستقل ، فتأتى أقوالها وأفعالها صادرة عن طبيعة حية فاعلة ، بحيث لا يستغرب من أقوالها وأعمالها ما يكون موضع المبالغة ؟

ثم ألا يشترطون أن يكون للقصة معنى خاص يلح على المؤلف ، ويحاول إبرازه فى صورة جيدة بما يرسم من الانفعالات ، ويصور من مشاهد وأشخاص.

ويشترطون ألا تأتى الحكمة والموعظة فى القصة تقريرية جافة ، وكأنها قاعدة علمية بل توحى بها القصة إيحاء ، وكأنها نتيجة تستلهمُ من السياق ! وإلا استحالت القصة مقالة علمية !

أما شروطهم فى اختيار اللفظ الكاشف والمغزى الهادف ، فأوضح من أن يدل عليه ، فإذا جئنا بهذه الشروط لتطبق على المأثور من الأقاصيص النبوية ، أفنجدها أخلت بأحد هذه الشروط ؟ لنترك الأقصوصة التمثيلية التى تجسم بعض المعانى دون أن يتأكد وقوعها مثل أقصوصتى القاتل التائب ، والصندوق الملقى فى البحر ، ثم فلننظر إلى بقية ما قدمنا من الأقاصيص المرورية عن صاحب الرسالة ، وقد قدمنا أنموذجين مختارين منها : هما : قصة الغار والصخرة ، وقصة المرضى الثلاثة ، فهل تشذ إحداهما عما اشترط المشترطون ! إن ما سقناه من التحليل الكاشف لهما ينطق بسبقهما الفنى . وربما زاد من قيمتها الفنية - غير ما اشترطه الناقدون - أنهما لم تتملقا الغرائز بالحديث عن موضوع رخيص ، بل ارتفعت بالنفوس إلى عوالم الحق والخير والجمال ! وفى ذلك إقناع العقل وإمتاع الوجدان .

* * *